

اجتهادات شجرة الزيتون أقوى

لم تصل رسالة الكاتب الأمريكي توماس فريدمان إلى جو بايدن. لا يتلقى ساكن البيت الأبيض رسائل تدعو إلى التعقل في إدارة الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. دعم الصهيونية فوق كل شيء، أيًا كان الثمن. وما أفدحه الثمن الذي حاول فريدمان تنبيهه بايدن إليه، لأنه يتعلق هذه المرة بحزبه. فحوى رسالة فريدمان أن استمرار السياسة الأمريكية في اتجاهها الراهن قد يُفجّر الوضع داخل الحزب الديمقراطي في ظل التوسع التدريجي للاتجاه التقدمي داخله، على نحو يُنذر بحدوث انقسام فيه. ولا يقل أهمية، في رسالة فريدمان، أن بايدن ربما يكون آخر رئيس ديمقراطي مؤيد لإسرائيل بسبب ما سماها (مخاطر تحويلها إلى دولة فصل عنصري يصعب الدفاع عنها).

ويبدو فريدمان، في موقفه هذا المتأثر بحرب الشهر الماضي، وكأنه يُراجع أطروحته المشهورة في كتابه (ليكزاس وشجرة الزيتون) الصادر عام 1999. ترمز السيارة ليكزاس للتقدم والرفاهية والازدهار من خلال الأسواق الحرة والتكنولوجيا والمؤسسات المالية، بينما ترمز شجرة الزيتون إلى الجذور والانتماء الوطني والتقاليد التاريخية.

تصور فريدمان، في لحظة نشوة انتصار الغرب في الحرب الباردة الدولية، أن العولمة القائمة على اقتصادات الأسواق الحرة والديمقراطية ستحقق ما كان الناس يصبون إليه، وبدا متفائلاً بحل صراعات كان مُدركًا مدى صعوبة تسويتها. وفي سياق روايته عن قصة زيارته مصنع سيارات

ليكزاس قرب طوكيو، كتب عن المسافة البعيدة بين من يصنعون هذه السيارة الأكثر رفاهية في العالم حينذاك، ومن يتصارعون على شجرة زيتون في منطقة يعرفها جيدًا منذ أن عمل مراسلاً لصحيفة «نيويورك تايمز» في بيروت ثم القدس في الثمانينيات، وأصدر كتابه (من بيروت إلى القدس) عن تلك التجربة.

ورأى، تأسيسًا على هذه المفارقة وما يماثلها، أن التحدى أمام العولمة يكمن في التوازن بين كل ما يؤدي إلى الدخول في عالم ليكزاس المعولم، والمحافظة على الجذور. ولكنه لم يقر بأن ما خلفته عولمة سابقة ارتبطت بالاستعمار يمنع هذا التوازن دون إزالة مخلفاتها، التي يُعد الاستعمار الصهيوني أهمها وأخطرها في عصرنا. ودون الإقرار بذلك، ستبقى شجرة الزيتون أقوى من كل ما ترمز إليه ليكزاس.